

أثر السياق اللغوي وغير اللغوي في إبراز المعنى التداولي في العربية
**The Effect of the Linguistic and Non-linguistic
 Context in Highlighting the Pragmatic Meaning in
 Arabic**

* د. عبد القادر جعيد

Abdelkader djaid

مركز البحث في العلوم الإسلامية والحضارة بالأغواط - الجزائر.

Center for Research in Islamic Sciences and Civilization in Laghouat
 - Algeria.

janadjaid@gmail.com

تاريخ النشر: 2021/03/30	تاريخ القبول: 2021/01/07	تاريخ الإرسال: 2020/11/04
-------------------------	--------------------------	---------------------------

ملخص البحث

تعد اللغة الوسيلة الأساسية لعملية التواصل ونقل التراث الفكري والثقافي من جيل إلى جيل، لهذا لا بد للبنى اللغوية (الألفاظ، التراكيب) أن تؤدي معنا معينا. ولأنّ مستعمل اللغة دائما ينجح إلى الاقتصاد في استخدام الالفاظ، لذا يوظف السياق (الداخلي والخارجي) لإفهام غيره. ولقد روج بعض الدارسين على أن التراث اللغوي العربي تغافل الابعاد التداولية الناجمة عن معطيات السياق في عملية التحليل. لهذا فإن من اهداف البحث تنفيذ هذا الادعاء، والتعريف بمفهوم السياق اللغوي والسياق الخارج عن المدى اللغوي، مع ابراز المنحى التداولي في جهود القدماء من خلال توظيفهم للسياق. متبعا منهجا وصفيا وتحليليا للوقوف على أهم النتائج التي أثبتتها الباحثة من خلال جهود النحاة والبلاغيين، والمنصبة على البحث عن الأغراض والمقاصد التداولية أثناء تحليل المدونة اللغوية العربية والتي ارتكزت على بنية اللغة في بعدها الصوري وتفاعلها الاستعمالي ضمن السياقين (الداخلي والخارجي).

الكلمات المفتاح: اللغة، السياق، التحليل اللغوي، المقاصد، التداولية.

Abstract :

Language is the primary means of communication and the transmission of intellectual and cultural heritage from one generation to the next. Therefore, linguistic structures (words, structures) must perform with us a certain aid. And because the language user always tends to economize in the use of words, so he employs the context (internal and external) to understand

* عبد القادر جعيد janadjaid@gmail.com

others. Some scholars have promoted that the Arab linguistic heritage neglects the deliberative dimensions resulting from the contextual data in the analysis process. Therefore, one of the objectives of this research is to refute this claim, and to define the concept of linguistic context and context outside the linguistic range, highlighting the pragmatic approach in the efforts of the ancients through their employment of the context. Following a descriptive and analytical approach to find out the most important results that the researcher has proven through the efforts of grammarians and rhetoricians, and focused on searching for pragmatic purposes during the analysis of the Arabic linguistic corpus, which was based on the structure of the language in its formal dimension and its interactional use within the two contexts (internal and external).

Keywords: Language, context, linguistic analysis, intent, Pragmatics.



تمهيد:

إن اللغة باعتبارها ظاهرة اجتماعية ، فهي تُقَطَّعُ التجربة الإنسانية في جميع ميادينها، وهي وسيلة التواصل الأساسية، لهذا لا بد للبنى اللغوية أن تؤدي معنا معيّنًا، والذي يُدرس في علم الدلالة أو علم المعنى، والذي يُشكل مستوى أساسيًا من مستويات الدرس اللغوي، ولهذا فإنّ معرفة هذه المعاني تشكل أساس عملية التواصل اللغوي بين الناطقين بلغة ما، سواء أكان هذا التواصل عن طريق الكتابة أو المحادثة الشفوية .

ويعتقد أنصار المدرسة الخليلية الحديثة(عبد الرحمن حاج صالح وتلامذته) أن مباني اللغة تنقسم إلى أصول وفروع وكذلك المعاني تنقسم هي أيضًا إلى أصول وفروع فأما الأصول فهي التي تتحدد بدلالة اللفظ ليس إلّا، وهي معطيات المواضعة (Données sémiologiques) الخاصة بلغة من اللغات في زمان معين من تطورها، أما الفروع فهي المعاني التي تتحدد بدلالة غير لفظية: دلالة الحال ودلالة المقام وغيرها وهي تتفرع عن الأولى بعمليات تحويلية من جنس العمليات العقلية و ميدان دراستها هو البلاغة... فالبلاغة في مظهرها الأول أي كعلم للمعاني هي امتداد لعلم النحو لأنها تنظر في كيفية استعمال الفرد "المعاني النحو" وهي المعاني التي تدلّ عليها كل الوجوه التي يقتضيها النحو أما في مظهرها الثاني أي كعلم للبيان (كمصطلح) فهي

تنظر في التحويلات التي تربط بين المعنى الوضعي والمعنى المقصود وهي من جنس العمليات المنطقية (المنطق الطبيعي لا المنطق الصوري)¹.

وعليه فإنّ البلاغة حسب المدرسة الخليلية هي امتداد للنحو بالنسبة للاستعمال فهي استثمار للذخيرة النحوية والصرفية في حالات خطافية ملموسة، فعلم البلاغة يبين لنا كيف نوظف وكيف تختار من هذا الذي تجعله اللغة تحت تصرفنا ويجعلنا نتساءل في كل حال خطافية ماذا يليق بهذا المقام ... من الأصوات ومن المفردات ومن التراكيب حتى أودي غرضي في أحسن الأحوال².

وإذا كُنَّا نُعْرِفُ اللغة بأنها نظام من العلاقات فلا بد أن يكون المعنى جزءًا من هذا النظام .
فيا ترى كيف تعامل أسلافنا من أهل اللغة مع المعنى؟ .

لقد كان لطائفة البلاغيين الحظ الوافر في تجلية هذه المقاصد والأغراض التداولية معتمدين على قواعد البناء الصوري التي قدمها النحاة لأنّها تحدّد المنازل التي تنتزّل فيها أجزاء الكلام، وطريقة تأليفها على الوجهة التي يتشكل به المعنى الذهني لتأديّة أصل الكلام المقيس على كلام العرب.

إنّ البلاغيين لم ينظروا إلى التراكيب من ناحية الصحة النحوية فحسب كما فعل النحاة، بل تجاوزوها إلى آفاق رحبة من أجل إماطة اللثام عن المعاني التي تلبّست بالمباني لتحقيق الغاية التواصلية التداولية في أكمل صورة وأبهى حلة. ولقد ميّزت الدراسات اللسانية خاصة الدلالية منها بين أنواع عديدة من المعاني واعتبرتها أساسية في الوصف الدلالي الشيء الذي أفضى إلى اهتمامها بالسياق باعتبار أنه يلعب دورا مركزيا في تحديد المعنى³. فما هو مفهوم السياق اللغوي والاصطلاحي؟ وما هو دوره في تجلية المعنى التداولي؟

مفهوم السياق **contexte**:

لغة: جاء في مادة (س.و.ق) " ساق الماشية يسوقها سوقا وسياقا، فهو سائقٌ وسوقٌ شدد للمبالغة"⁴ وتقريبا إلى نفس المعنى ذهب صاحب لسان العرب حيث جاء عنه: " وقد انسقت وتساوقت الإبل تساوقا إذا تتابعت، وكذلك تقاودت فهي متقاودة ومتساوقة... والمساوقة: المتابعة كأن بعضها يسوق بعضها، والأصل في تساوق تتساوق كأنها لضعفها وفرط هزالها تتخاذل ويتخلف بعضها عن بعض"⁵.

ومنه يمكن أن نستنتج أن السياق هو التابع والتسلسل في الكلام، والعرب استعملته بهذا المعنى وأن هذه المشتقات المتعددة في مصادرها هي وصف " للأسلوب والغرض والغاية ثم توالي وتتابع مكونات النص، وهو التابع المفهوم من سوق الإبل أو القافلة"⁶.

اصطلاحاً:

والسياق بمفهومه العام " النظم اللفظي للكلمة، وموقعها من ذلك النظم"⁷. يقول جون ديوي: السياق هو مجمل الشروط الاجتماعية المتفق عليها، التي تُخذ بعين الاعتبار لدراسة العلاقات الموجودة بين السلوك الاجتماعي واستعمال اللغة، وهي المعطيات المشتركة بين المرسل والمرسل إليه والوضعية الثقافية والنفسية والتجارب والمعلومات الشائعة بينهما⁸. كما عرّفه محمود السعمران بقوله: "هو جملة العناصر المكوّنة للموقف الإعلامي أو للحال الكلامية"⁹.

ويقوم السياق (الداخلي والخارجي) في أحيان كثيرة بتحديد القيمة التداولية للكلمة في الجملة. ولقد أشار علماء اللغة العربية إلى أهمية مفهوم السياق في عباراتهم الشهيرة مثل: (مطابقة الكلام بمقتضى الحال)¹⁰ و(لكل مقام مقال) و(لكل كلمة مع صاحبها مقام)¹¹، مما جعل تمام حسان يُعجب بهم ويعترف لهم بالفضل والسبق حيث يقول: " ولقد كان البلاغيون عند اعترافهم بفكرة المقام متقدمين ألف سنة تقريباً على زمانهم، لأن الاعتراف بفكرتي (المقام والمقال) باعتبارها أساسين متميزين من أسس تحليل المعنى يُعتبر الآن في الغرب من الكشوف التي جاءت نتيجة لمغامرات العقل المعاصر في دراسة اللغة"¹².

وقد نوّه نحّاد الموسيقى أيضاً بإدراك النحاة لأثر السياق الخارجي في توجيه قواعدهم النحوية للوصول إلى المعنى المراد. ويقول عن سيبويه: " فوجدته منذ ذلك العهد المبكر يفرغ إلى السياق والملايسات الخارجية، وعناصر المقام، ليردّ ما يعرض من بناء المادة اللغوية من ظواهر مخالفة إلى أصول النظام النحوي طالبا للاطراد المحكم، وهو يوافق ما صدر عنه في الكتاب ملحوظات كثيرة، ممّا تبني عليه الوظيفة ومناهج التوسيع، أو اللغويات الخارجية بعبارة دي سوسير، كما أشبهت ملحوظاته ملحوظات اللغويين"¹³، ذلك أن السياق هو المكان الطبيعي لبيان المعاني أو القيم التداولية للكلمات، فإعماله مبدأ ضروري لمعرفة معنى الكلام، لأن سلوك اللغة سلوك اقتصادي يوظف القليل من الوسائل للوصول إلى الكثير من الغايات والأهداف؛ علماً أن المباني اللغوية محدودة

متناهية، والمعاني غير محدودة فلا بد من توسيع المعاني بتوسيع الوظائف لهذه الأبنية اللغوية عن طريق القرائن السياقية¹⁴.

وقد عرّف السعمران السياق الخارجي على النحو الآتي: " إن سياق الحال أو (المجاري) هو جملة العناصر المكونة للموقف الكلامي أو (للحال الكلامية)"¹⁵ ثم عدد عناصر سياق الحال وهي: شخصية المتكلم والسماع، والعوامل والظواهر الاجتماعية، وأثر النص الكلامي في المشتركين¹⁶.

وقد بيّن الخطيب القزويني (ت788هـ) أنواع المقامات وفي نفس الوقت جعل الحال والمقام مترادفين بقوله: "مقامات الكلام متفاوتة، فمقام التنكير يُبين مقام التعريف، ومقام الإطلاق يبين مقام التقييد، ومقام التقلّص يبين مقام التأخير، ومقام الدّكر يبين مقام الحذف، ومقام القصر يبين مقام خلافه، ومقام الفصل يبين مقام الوصل، ومقام الإيجاز يبين مقام الإطناب والمساواة، وكذا خطاب الذكي يبين خطاب الغبي"¹⁷. ولعل ظاهرة السياق ومن أبرزها التنغيم خير دليل على هذه الوجهة التداولية. فما ذا نعني إذا بالتنغيم؟

إنّ مصطلح التنغيم، وهو ترجمة للمصطلح الأجنبي (Intonation)، يُعرف بأنّه: "الضغط النسبي على كلمة من كلمات الجملة أو على ما كان في حكم الكلمة الواحدة، ليكون ذلك الجزء المضغوط من الجملة أبرز من غيره من أجزاء الجملة، ويقع على ما يراد تأكيده، أو ما يُستغرب من الجملة"¹⁸.

كما يُعرف أيضا بأنه " توزيع درجات النبر على أجزاء الجملة تبعا لأهميتها عند المتكلم ولطبيعة الجملة ونوعها بحيث يكون لكل جملة قالبها النبري الخاص بها، وهذا القالب يختلف - بالطبع - من لغة إلى أخرى"¹⁹.

وقد عدّ بعض الدارسين نبر الجملة فونيمًا ثانويًا تأكيدًا لقيمتها النسبية في بنية الكلمة، وحسبه آخرون (فيرث ومدرسته) ضربًا من التطريز²⁰. " ولقد اشتق التطريز من المصطلح الاغريقي prosida وهو مصطلح موسيقي يدل أحيانا على ترنيم أغنية في الموسيقى أو الدور الغنائي المصاحب وهذا يستتبع أن التطريزة هي الدور الموسيقي المصاحب للكلمات نفسها"²¹، كما يطلق بعضهم مصطلح التنغيم (Intonation) على نبر الجملة ويُعرّفه على أنه " ارتفاع الصوت وانخفاضه أثناء الكلام"²².

ولقد قارن تمام حسان بين النبر الصرقي (نبر الكلمة)، وبين النبر السّياعي (نبر الجملة) فقال: "ونبر السياق مستقل عن نبر الصيغة الصرفية... ولو أنه يتفق معه في مواضع أحيانا، والفرق بين الدلالي والصرقي، أو نبر السياق ونبر الصيغة، أن نبر السياق يمكن وصفه على عكس نبر الصيغة بأنه إما أن يكون تأكديا، وإما أن يكون تقريريا"²³.

وأطلق إبراهيم أنيس على التنغيم مصطلح (موسيقى الكلام)²⁴، ويبدو أنه أخذه من مصطلحات الغربيين حينما يسمون عناصره بعناصر الموسيقى Eléments Musicaux وقد أشار بعض الدارسين إلى أنواع النغمات ما بين هابطة إلى أسفل وصاعدة إلى أعلى وثابتة مستوية²⁵.

ولقد كاد دارسو الصوتيات أن يجمعوا على أن مفهوم التنغيم لم يرد في التراث اللغوي العربي غير أن أحمد كشك يقول عن طبيعة رؤية القدماء لظاهرة التنغيم ما يلي: "وقدامى العرب، وإن لم يربطوا ظاهرة التنغيم بتفسير قضاياهم اللغوية، وهم وإن تاه عنهم تسجيل قواعد لها، فإن ذلك لم يمنع من وجود خطرات ذكّية لماحة تعطي إحساسا عميقا بأن رفض هذه الظاهرة تماما أمر غير وارد، وإن لم يكن لها حاكم من القواعد"²⁶.

جهود علماء العربية في التحليل اللغوي اعتمادا على السياق:

لقد ذكر ابن جني في تحليله اللغوي ملمحا من ملامح السياق اللغوي الا وهو النبر في تفسير قولهم: "سير عليه ليل، وهم يريدون: ليل طويل. وذلك أنك تحس في كلام القائل لذلك من التطويح والتطريح والتفخيم والتعظيم ما يقوم مقام قوله: طويل أو نحو ذلك. وأنت تحس هذا من نفسك إذا تأملته. وذلك أن تكون في مدح إنسان والثناء عليه، فتقول كان والله رجلا. فتزيد في قوة اللفظ ب(الله) هذه الكلمة، وتمكن في تمطيط اللام وإطالة الصوت بها(وعليها) أي رجلا فاضلا أو شجاعا أو كريما أو نحو ذلك"²⁷.

وكذلك قوله: سألناه فوجدناه إنسانا وتمكن الصوت بإنسان وتفخمه وتستغني بذلك عن وصفه بقولك: إنسانا سمحا أو جوادا أو نحو ذلك. وكذلك إن ذمته ووصفته بالضيق قلت: سألناه وكان إنسانا، وتزوي وجهك وتقطبه فيعني ذلك عن قولك أنسانا لئما أو لحزا أو مُبْخَلًا أو نحو ذلك"²⁸. والملاحظ في كلام ابن جني دخول العنصر صوتي على البنية الأساسية للجملة ليؤدي هذه المقاصد التداولية، وقد يستعين مرسل الرسالة إلى إضافة عناصر غير لغوية كما هو واضح في

المثال السابق (وتزوي وجهك وتقطبه) ويستغني عن اللفظ لبلوغ الغاية التداولية في ارقى مستوى من مستويات التواصل.

وجاء في تراث اللغويين العرب مصطلح الترنم ليعبر عن ظاهرة التنغيم على النحو الذي ذكره شارح المفصل حيث يقول: " اعلم أن المندوب مدعو ولذلك ذُكر مع فصول النداء لكنه على سبيل التفجع فأنت تدعوه وإن كنت تعلم أنه لا يستجيب كما تدعو المستغاث به وإن كان بحيث لا يسمع كأنه تغده حاضرا، وأكثر ما يقع في كلام النساء لضعف احتماهن وقلة صبرهن، ولما كان مدعوا بحيث لا يسمع أتو في أوله بيا أو وا ملدّ الصوت ولما كان يسلك في الندبة والنوح مذهب التطريب زادوا الألف آخرًا للترنم"²⁹.

ويقول النحاة إن حذف بعض الاسم المنادى إنما يكون للترخيم، وقد قرأ بعض السلف قوله تعالى: ﴿ونادوا يا مالك﴾ الزخرف 77 بالترخيم أي (مال) بحذف الكاف من مالك، فأنكرها ابن جني وقال: «ما أشغل أهل النار عن الترخيم»³⁰، وذلك لأنّ (الترخيم) وهو تخفيف الكلام وتليينه، إنما يستعمله القادر على التصرف في منطقته، وأهل النار في حال لا يُمكن معها القدرة على ذلك. فابن جني بحسه الرفيع يكشف قيمة تعبيرية تداولية جديدة للحذف حيث يقول: «هذا المذهب المألوف في الترخيم. إلا أنّ فيه في هذا الموضوع سرًّا جديدا، وذلك أنّهم لعظم ما هم عليه ضُعفت قواهم، وذلت أنفسهم وصغر كلامهم فكان هذا من مواضع الاختصار ضرورة عليه، ووقوفا دون تجاوزه إلى ما يستعمله المالك لقوله القادر على التصرف في منطقته»³¹.

وقد فسر ابن جني أيضا «قراءة من قرأ قوله تعالى: ﴿يَا حَسْرَةَ عَلَى الْعِبَاد﴾ يس 30، بالهاء ساكنة إنما هو لتقوية المعنى في النفس، وذلك أنّه في موضع وعظ وتنبيه وإيقاظ وتحذير، فطال الوقف على الهاء كما يفعله المستعظم للأمر، المتعجب منه، الدال على أنّه قد بجره، وملك عليه لفظه وخاطره. ثم قال من بعد "على العباد"، عاذرا نفسه في الوقف»³²، فغرض التحذير والتنبيه وتعظيم الأمر وكلها ذات مقاصد تداولية دفعت القارئ إلى حذف التنوين والوقوف على الهاء لإعطاء الآية الكريمة قيمة تداولية.

ومتّثل خالد عبد الحليم العبسي لهذا النوع من النبر (نبر الكلمات في الجمل) بما يلي³³:

✓ سافر حمزة أمس للحج برا .

✓ سافر حمزة أمس للحج برا.

✓ سافر حمزة أمس للحج برا.

✓ سافر حمزة أمس للحج برا.

إنّ في الجملة الأولى النبر على (سافر) لكون الحدث هو ما يريد تأكيده في الجملة، وفي الجملة الثانية كان النبر على (حمزة) لكون المسند إليه هو موطن الاستغراب أو ما يراد تأكيدا، فقد يكون المسافرون كثيرين، ولم يكن من المتوقع سفر حمزة معهم، فوقع الضغط على اسمه تأكيدا لذلك، وفي الجملة الثالثة كان النبر على (أمس) لكون زمن الحدث هو محلّ الاستغراب أو التأكيد؛ فقد يكون سفر حمزة إلى مكة أمرا عاديا، ولكن حصوله أمس مع اقتراب زمن الحج مثلا هو محلّ الاستغراب، وفي الجملة الرابعة كان النبر على (للحج) لكون المكان الذي سافر إليه حمزة هو ما يُستغرب منه أو يُراد تأكيده، فقد يكون حمزة كثير الأسفار، ويكون سفره أمرا معتادا لا غرابة فيه، إلاّ أنّه غير معتاد أن يكون إلى مكة، وفي الجملة الخامسة كان النبر على (برا) لأنه قد يكون سفر حمزة أمس إلى مكة أمرا عاديا، ولكن حصوله برا هو ما يراد تأكيده لسبب ما، فصحة حمزة مثلا لا تتحمل سفر البر، أو إن طريق البر غير آمنة أو نحو ذلك. وهذا السلوك النبري الذي ينتهجه مُنتج الكلام والحرص على تبليغ رسالته الى المتلقي ما هو إلا سلوك تداولي توخى له الاقتصاد في اللفظ والارتكاز على السياق الحالي والمقامي.

وإنّ من أهم وظائف التنغيم على مستوى الجملة الربط بين أجزاء المنطوق والدلالة على الأهمية النسبية لأجزاء الكلام، والإشارة إلى نوع الجملة ونوع أسلوبها (استفهامية، تعجب، أمر، إخبار... الخ). أي يكون للتنغيم في هذا المستوى قيمة وظيفية نحوية في التفريق بين الأساليب غير أنّها لا تستمد من معطيات النظام اللغوي الداخلي بل من معطى خارج عن المدى اللغوي.

يقول تمام حسان: "وربما كان له (يعني التنغيم) وظيفة نحوية هي تحديد الإثبات والنفي في الجملة لم تستعمل فيها أداة الاستفهام فقد تقول لمن يكلمك ولا تراه (أنت محمد) مقررًا ذلك أو مستفهما عنه وتختلف طريقة رفع الصوت وخفضه في الإثبات عنها في الاستفهام ولكن كل شيء فيما عدا التنغيم يبقى في المثال على ما هو عليه"³⁴.

وقد تخرج الجملة نفسها (أنت محمد) بالتنغيم إضافة إلى معناها النحوي لتعبير عن معنى انفعالي كالتحقير والسخرية والتهكم. والتنغيم ينقل الكلام من أسلوب النداء إلى أسلوب الاستفهام ومن ذلك قول جرير:

أَعْبَدًا حَلَّ فِي شُعْبِي غَرِيبًا أَلُومًا لَا أَبَالِكُ وَاعْتِرَابًا³⁵.

فطبيعة التنغيم تنقل الكلام من الملمح التداولي وهو النداء(أعبدا) لكون أن الهمزة حرف نداء إلى ملمح تداولي آخر وهو الاستفهام بتأويل فعل محذوف تقديره((أتفتخر عبدا؟) وقد وضح سيوييه هذا نوع من الأسلوب بقوله: "وأما عبداً فيكون على ضربين إن شئت على النداء، وإن شئت على قوله: (أتفتخر عبداً؟) ثم حذف الفعل"³⁶.

ويقول سيوييه في موضع آخر: "ويقول: أتاني اليوم رجل، أي قوته ونفاذه، فتقول، ما أتاك رجل أي أتاك الضعفاء"³⁷. إن سيوييه جعل التنغيم ملحظاً وصفيًا في تحديد الدلالات، التي تتضمنها، ففي جملة(أتاني اليوم رجل) يمكن التعبير بما للدلالة على شجاعة الرجل أو ضعفه وحقارته بمجرد تنغيمها، فمن خلال تباين النغمة تتضح الدلالة التي تنسجم مع المقصد التداولي الذي يريد المتكلم إبلاغه للسامع³⁸.

إنّ للتنغيم قيمة وظيفية دالة على معاني الجملة تتضح في صلاحية الجمل التأثيرية المختصرة نحو: لا، نعم، يا سلام، الله، الخ. لأنها تقال بنغمات متعددة ويتغير معناها النحوي والدلالي مع كل نغمة [إلى المقاصد التداولية] كالاستفهام، والتوكيد، والاثبات أو الملامح تداولية مثل الحزن، والفرح، والشك، والتأنيب، والاعتراض، والتحقير وهلم جرا، حيث تكون النغمة هي العنصر الوحيد الذي تتسبب عنه تباين هذه المعاني، لأن الجملة لم تتعرض لتغير في بنيتها ولم يضاف إليها أو يُستخرج منها شيء، ولم يتغير فيها إلا التنغيم وما قد يصاحبه من تغيرات الملامح وأعضاء الجسم مما يعتبر من القرائن الحالية³⁹.

إنّ المعنى التداولي الذي يتأتى لنا من تنغيم هذه الجملة: (زيد في البيت) هو ما يلي: فقد تكون جوابا لسؤال، وقد تكون للاستغراب، أو التحذير، أو الغمز، أو للاستهجان، أو لغير ذلك من الدلالات التداولية، بما تقتضيه مقامات التواصل المختلفة.

وفي قوله تعالى: ﴿ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَادِبِينَ ﴾ (74) قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿ يوسف 75 إذا كان النبر على (جزاؤه) الأولى من الآية 74 كانت الجملة الثانية أي الآية 75 تقريرا للسؤال الأول. أما إذا كان النبر على(جزاؤه) الأولى من الآية 75 فتكون الجملة استفهامية، وتكون الجملة التي بعدها(مَنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ) تقريرا لها⁴⁰. كما يؤدي التنغيم مؤدى بعض الأدوات عند حذفها ويعطي للجملة قيمة تعبيرية تداولية

جديدة تُحوّلها من معنى إلى آخر نحو: نعمة الدعاء في قول الداعي عند حذف الأداة (لا شفاك الله) أي بدون ذكر الواو [أي الوصل بينهما] مع المحيء بالوقف ثم الاستئناف⁴¹. ومن أمثلة ذلك حذف الهمزة في بيت عمر بن أبي ربيعة حيث عُوض بالتنغيم على لفظة (تُحبّها) بمد آخرها. ثم قالوا تحبّه _____ فُلْتُ بمرأٍ عدد النجم والحصا والتراب⁴².

ويفرق التنغيم أيضا بين معاني بعض الأدوات والحروف ويعطيها قيما ومقاصدا تداولية جديدة؛ مثل التفريق بين يا الندبة والنداء نحو قوله تعالى: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَطْتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ﴾ الزمر 56، ففي الآية وصف الله عز وجل حالة نفس المُسْرِفِ بالمعاصي؛ فالياء هنا للندبة لتعذر النداء على الحسرة ولنغمة الحزن التي تكتنف حديث العاصي يوم القيامة⁴³.

وضرب تمام حسان مثلا على القيم التي يمكن أن يؤديها حرف النداء "الياء" في العبارة "يا سلام" في مقامات اجتماعية كثيرة حيث تتغير النغمة مع كل مقام التي تصحب نطق العبارة فمن الممكن أن تقال هذه العبارة في مقام التأثير وفي مقام التشكيك وفي مقام السخط وفي مقام الطرب وفي مقام التوبيخ وفي مقام الإعجاب وفي مقام التلذذ⁴⁴ وهذه كلها مقاصد تداولية.

وجاء عن سيبويه في (باب ما يُضمَرُ فيه الفعل المستعمل إظهاره في غير الأمر والنهي) قوله: «ويجوز أن تقول: مكّة والله، على قولك: أراد مكّة والله، كأنك أخبرت بهذه الصفة عنه أنّه كان فيها أمس»⁴⁵. فالمعنى هو الذي وجه تقدير المحذوف أي الوظيفة النحوية بالفعل (أراد) على قصد الإخبار الإنكاري لأنه أردفه بالقسم وهو أعلى درجات التوكيد، وليس بغرض التحذير ولا الإغراء. وسبويه في عمله هذا يعتمد على السياق الخارجي أي حاسة البصر وحال السامع لتوجيه قواعده النحوية لتحقيق الغرض التداولي.

وكذلك فعل سيبويه الشيء نفسه في تحليله العبارة التالية (الهِلالَ وربّ الكعبة) مُعتمدا على حاسة البصر أيضا وهي قرينة على السياق الخارجي حيث يقول: «ولو رأيت ناساً ينظرون الهلالَ وأنت منهم بعيدٌ فكبروا لقلت: الهلالَ وربّ الكعبة، أي أبصروا الهلالَ. على وجه التّفاؤُل، أو رأيت ضرباً فقلت: عبد الله، أي يقع بعبد الله أو بعبد الله يكون»⁴⁶. فتقدير المحذوف (الفعل المنصوب) وهي وظيفة نحوية ولدت قيما تعبيرية وضّحت القصد التداولي للمتكلم كالتفاؤل مثلا في المثال الأول. وقد يحذف الفعل وينصب الاسم الأول بغرض التحذير والإغراء في المثال الثاني.

يقول سيبويه: «ومثل ذلك: أَهْلَكَ وَاللَّيْلَ، كأنه قال: بادِرْ أَهْلَكَ قَبْلَ اللَّيْلِ، وإِنَّمَا الْمَعْنَى أَنْ يَحْدُرَهُ أَنْ يُدْرِكَه اللَّيْلُ»⁴⁷. فرؤية علامات إِدْبَارِ النَّهَارِ وإِقْبَالَ اللَّيْلِ؛ وهي قرائن خارجية ولدت قيمة التحذير في توجيه قواعد النحو عند سيبويه. وفي موضع (هذا باب ما يكون المبتدأ فيه مضمرًا، ويكون المبني عليه مظهرًا) يقول: " وذلك أنك رأيت صورة شخص فصار آية لك على معرفة الشخص، فقلت: عبدُ الله وربي، كأنك قلت: ذلك عبد الله، أو هذا عبد الله. أو سمعت صوتًا فعرفت صاحب الصوت، فصار آية لك على معرفته فقلت: زيدٌ وربي، أو مسست جسدًا، أو شممت ريحًا، فقلت: زيدٌ، أو مسك، أو دُقت طعامًا، فقلت غسل" ⁴⁸.

إن سيبويه في كل هذه الأمثلة التي أوردها يعتمد على السياق الخارجي، وهي حاسة البصر وحاسة السمع، وحاسة اللمس، وحاسة الشم، أي مراعاة سياق الحال في الكشف عن القيم التعبيرية وأبعادها التداولية الموجهة لقواعد النحو.

ولقد ألمح ابن جني لسياق الحال في خصائصه بقوله: "والذي يدل على أنهم قد أحسوا ما أحسنا، وأرادوا (وقصدوا) ما نسبنا إليهم إرادته وقصده شيئان: أحدهما حاضر معنا، والآخر غائب عنا إلا أنه مع أدنى تأمل في حكم الحاضر معنا. فالغائب ما كانت الجماعة من علمائنا تشاهده من أحوال العرب (ووجوهها) وتضطّر إلى معرفته من أغراضها وقُصودها: من استخفافها شيئًا أو استثقاله، وتقبُّله أو إنكاره، والأنس به أو الاستيحاش منه، والرضا به، أو التعجُّب من قائله [وكل هذه الأغراض هي في الحقيقة مقاصد تداولية]، وغير ذلك من الأحوال الشاهدة بالقصود" ⁴⁹.

إنّ سياق الحال وظروف المقال وملابساته الخارجية تسيِّجُ المعنى وتنقله من قيمة تعبيرية ومقصد تداولي إلى مقصد آخر. وإليك توضيح ذلك: يقول الشاعر: (قُلْنَا لَهَا قِفِّي لَنَا قَالَتْ قَاف)، فقال ابن جني: "لو نقل إلينا هذا الشاعر شيئًا آخر من جملة الحال فقال مع قوله: قالت قاف، (وأمسكت بزمام بغيرها)، أو (عاجته علينا) لكن أبين لما كانوا عليه، وأدّل على أنها أرادت: وقفتُ أو توقفتُ دون أن يُظنَّ أنها أرادت: قفي لنا! أي يقول لي: قفي لنا! متعجِّبةً منه. وهو إذا شاهدها وقد وقفت، علم أنّ قولها (قاف) إجابة له، لا ردّ لقوله وتعجّب منه في قوله: قفي لنا" ⁵⁰.

كما أن لدلالات حروف المعاني من المناسبة وعلاقتها بالسياق الخارجي ما يولد قيمة تعبيرية

تساهم في افتتاح نظام اللغة العربية على معطيات الواقع الخارج عن المدى اللغوي ومُكِّن المتكلمين من دقّة التعبير بما يتوافق مع أعراضهم التواصلية.

ومن أمثلة ذلك حروف العطف في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ الشعراء 79-80-81. "فالأول عطفه بالواو التي هي للجمع وتقدم الإطعام على الإسقاء، والإسقاء على الإطعام جائز لولا مراعاة حسن النظم ثم عطف الثاني بالفاء لأن الشفاء يعقب المرض بلا زمان خال من أحدهما، ثم عطف الثالث بثمّ، لأن الإحياء يكون بعد الموت بزمان، ولهذا جيء في عطفه بثمّ التي هي للتراخي، ولو قال قائل في موضع هذه الآية يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ وَيَمْرَضُنِي وَيُحْيِينِي وَيُجِيبُنِي لكان للكلام معنى تام، إلا أنه لا يكون كمعنى الآية، إذ كل شيء منها قد عطف بما يناسبه، ويقع موقع السداد منه"⁵¹.

"ولعل من أدلّ الظواهر اللسانية على السياق، وأحسنها في إبراز دوره في تحديد المعنى [وكذلك المقاصد التداولية] وتقليب وجوهها ظاهرة زمن الفعل العربي؛ فهي ظاهرة تستند إلى حركية واضحة في التعبير على المعاني المفتوحة على السياق بنوعيه اللغوي والمقامي"⁵²، فالفعل الماضي مثلا حسب دلالة التسمية (الزمن الصرفي) يقتضي ألا يُستعمل في غير الماضي التزاما بتقسيم النحاة، لكننا نجد واقعه في الاستعمال يخالف ذلك.

إن الماضي يُشير في بعض دلالاته إلى وقوع الحدث في زمن التكلم معتمدا على قرينة خارجية مأخوذة من سياق المقام، كما في قول البائع: بِعْتُكَ. والمشتري: قَبِلْتُ⁵³. ويوضح السيوطي تحول زمن الماضي بقرينة خارجية للدلالة على الحال: "ينصرف إلى الحال، وذلك إذا قصد به الإنشاء، كبعْتُ، واشتريت، وغيرها من ألفاظ العقود، إذ هو عبارة عن إيقاع معنى بلفظ يقارنه في الوجود"⁵⁴. فتحول زمن فعل الماضي للدلالة على الحال في هذه الأفعال الكلامية هي من صلب القضايا التداولية التي اهتمتها مباحث البلاغيين والنحاة وانكب على فحصها الفقهاء والأصوليون⁵⁵، ومنه أيضا إذا وردت صيغة الماضي في سياق الإعلان عن أمر والإقرار به نحو قوله تعالى على لسان موسى عليه وعلى نبينا السلام، بعدما أفاق من الصعقة: ﴿قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الأعراف 143 فصيغة الماضي في قوله (تُبْتُ) تدل على الزمن الحاضر في ضوء سياق الآية، وفي قوله إعلان عن التوبة وإقرار بها⁵⁶.

ومما سبق تبرز خصوصية زمن الفعل العربي "في أنه ذو نظام مفتوح على توزيع قرائني يستمد قيمه النحوية من تأثيرات السياق الداخلية والخارجية، وأنه ليس مجرد زمن صيغي temps model ترتبط دلالاته بالصيغة ارتباطا مبنويا مغلقا"⁵⁷.

ومن أمثله أيضا، إذا وردت صيغة الماضي في سياق الترسّل (كتابة رسالة) وذلك مثل قولك: كتبْتُ إليك كذا، في معنى: أكتبُ، وبعثْتُ إليك بهذا، في معنى أبعثُ⁵⁸.

ولقد ذهب طه عبد الرحمن إلى "أن القول الطبيعي مجردا عن مقامه تصوير محامله كثيرة ولا يتعيّن واحد منها إلا بتعيين المقام، حتى إنه يصحّ الادعاء بأن الأصل في القول الطبيعي أن تتعدّد معانيه إلى أن يثبت بالدليل خلاف ذلك؛ وإذا كان الأمر كذلك، فقد وجب أن تكون صورته الممكنة متعددة وأن لا ينحصر تقويمها ضمن قيمة واحدة"⁵⁹.

خاتمة:

وجملة القول إنّ القدامى من أهل اللغة العربية وهم يتفحصون كلام العرب حاولوا رصد الأساليب البليغة وأبعادها التداولية وما ينبغي أن يلتزم به من رمّ الفصاحة، وما يجب أن يراعيه المتكلم من مقتضيات حال السامع وملابسات المقام كي يتسنى له تحقيق مقصده التداولي على أكمل وجه ممكن.

ولقد بلغوا الغاية خاصة في علم المعاني، حيث استدركوا ما فات النحاة من مباحث كانت أولى بالاهتمام من غيرها لأنّها من صميم الدرس النحوي، لينبزي الامام عبد القاهر الجرجاني معاتباً من فصل علم المعاني عن النحو منتهجا مسلكا تفسيريا وتحليليا لقضايا النحو ومُرجعا الدلالات لمعاني النحو وقد سمى نظريته بالنظم، والتي تركز على الوجوه والفروق وهذا المنحى التداولي الذي يتجلى فيه اهتمام القداماء من أهل اللغة بالمعنى في أبعاده السياقية الداخلية والخارجية أصبح اليوم حقيقة ماثلة في صلب الدرس اللغوي الحديث خاصة في بعده الوظيفي والتداولي.

ولقد توصل الباحث إلى بعض النتائج من أهمها ما يلي:

- اللغة كظاهرة اجتماعية تناولها علماء العربية قديما بالتحليل سواء في جانبها الصوري (المتمثل في عمل النحاة) أو في جانبها الاستعمالي والفني (المتمثل في عمل البلاغيين والأصوليين).
- إنّ نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني تعد طفرة علمية ونظرة تحليلية عميقة تضاهي أحدث النظريات اللسانية.

- إنَّ المنحى التداولي في الدراسة التراثية للغة العربية (عمل قدامى النحاة والبلاغيين والأصوليين) مظهر بارز لا ينكره إلا من أراد أن يتنكب عن الحقيقة العلمية والحكم الموضوعي.
- مراعاة السياق الداخلي والخارجي في تصيّد المعاني كان من اهتمام دارسي اللغة العربية القدماء.
- إنَّ قضايا النبر والتنغيم كانت من المفاهيم التي لم تغب عن الفكر التراثي للعربية حتى وإن لم يصرحوا بمصطلحاته على النحو المعروف اليوم في الدراسات اللسانية الغربية.

هوامش:

- ¹ - عبد الرحمان حاج صالح-المدرسة الخليلية و الدراسات اللسانية في العالم العربي، اليونسكو، الرباط(8-11) افريل 1987، ص387.
- ² - عبد الرحمان حاج صالح، النظرية الخليلية الحديثة (القدامى من النحاة والمتأخرون)، مجلة اللغة والأدب، الجزائر، 1996، العدد10، ص 91.
- ³ - علي آيت أوشان، السياق النصي(من البنية إلى القراءة)، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط1، 2000، ص15.
- ⁴ - الجوهري(اسماعيل بن حماد)، الصحاح(تاج اللغة وصحاح العربية)، تق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط4، 1990، ص1499.
- ⁵ -ابن منظور، لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، طبعة جديدة منقحة، مع3، ص2154.
- ⁶ -ردة الله بن ضيف الطلحي، دلالة السياق، مكتبة الملك فهد، السعودية، 2005، ص41.
- ⁷ - ستيفان أولمان، دور الكلمة في اللغة، تر كمال بشر، مكتبة الشباب، ص59.
- ⁸ - ينظر Jen Dubois ,dictionnaire de Linguistique et des sciences du langage,Larousse2^{eme} Edition,1999 ,p116.
- ⁹ - فوزي عيسى، رانيا فوزي عيسى، علم الدلالة(النظرية والتطبيق)، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ط1، 2008، ص59.
- ¹⁰ -الجاحظ، البيان والتبيين، تق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط7، 1998، ص83.
- ¹¹ - الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص12.
- ¹² - تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1979، ص337.
- ¹³ - نجاد الموسى، نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث، دار البشير، الأردن، ط2، 1970، ص88.

- ¹⁴ - ينظر تمام حسان، البيان في روائع القرآن (دراسة لغوية واسلوبية للنص القرآني)، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 1993، ص20.
- ¹⁵ - ينظر محمود السعران، علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، دار النهضة العربية، بيروت، د ط، د ت، ص311.
- ¹⁶ - ينظر المرجع نفسه ص311-312.
- ¹⁷ - الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، ص11-12.
- ¹⁸ - خالد عبد الحليم العبسي، النبر في العربية (مناقشة للمفاهيم النظرية ودراسة أكوستيكية في القرآن)، علام الكتب الحديث للنشر والتوزيع، أريد، الأردن، ط1، 2011، ص36.
- ¹⁹ - عبدالعزيز أحمد علام وعبد الله ربيع محمود، علم الصوتيات، مكتبة الرشيد، الرياض، المملكة العربية السعودية، 2009، ص333 و335.
- ²⁰ - كمال بشر، علم الأصوات، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، 2000، ص513.
- ²¹ - أحمد البياتي، آفاق الثقافة والتراث، قسم الدراسات والنشر والشؤون الخارجية، مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، المغرب، 2013، العدد81، ص102.
- ²² - تمام حسان، مناهج البحث في اللغة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1955، ص164.
- ²³ - تمام حسان، مناهج البحث في اللغة، ص163.
- ²⁴ - إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، مكتبة الأنجلو المصرية، ط5، ص175.
- ²⁵ - ينظر تمام حسان، مناهج البحث في اللغة، ص166.
- ²⁶ - أحمد كشك، من وظائف الصوت اللغوي (محاولة لفهم صرفي ونحوي ودلالي)، دار غريب لطباعة والنشر، القاهرة، 2006، ص52 وما بعدها.
- ²⁷ - ابن جني، الخصائص، تق محمد النجار، المكتبة العلمية، ج2، ص370-371.
- ²⁸ - المصدر نفسه، ص371.
- ²⁹ - ابن يعيش، شرح المفصل، إدارة الطباعة المنيرية، مصر، ج2، ص13.
- ³⁰ - الزركشي (بدر الدين محمد بن عبد الله)، البرهان في علوم القرآن، تق أبي الفضل إبراهيم الدمياطي، دار الحديث، القاهرة، ط3، 1984، ج3، ص190.
- ³¹ - ابن جني، المحتسب، تق علي النجدي ناصف وعبد الفتاح اسماعيل الحلبي، القاهرة، (1414هـ) 1994م، ج2، ص257.
- ³² - المصدر نفسه، ج2، ص210.
- ³³ - خالد عبد الحليم العبسي، النبر في العربية (مناقشة للمفاهيم النظرية ودراسة أكوستيكية في القرآن)، ص36-37.
- ³⁴ - تمام حسان، مناهج البحث في اللغة، ص164.

- 35 - جرير (بن عطية الخطفي)، ديوان جرير، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1986، ص56.
- 36 - سيبويه، الكتاب، تق وشرح عبد السلام هارون، ط3، (1403هـ 1983م)، ج1، ص339.
- 37 - المصدر نفسه، ج1، ص55.
- 38 - ينظر نوزاد حسن أحمد، المنهج الوصفي في كتاب سيبويه، منشورات جامعة قان يونس بنغازي، ط1، 1996، ص263.
- 39 - ينظر تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص228.
- 40 - ينظر سهل ليلي، التنعيم وأثره في اختلاف المعنى، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر، جوان 2010، العدد7، ص12.
- 41 - ينظر تمام حسان، العربية معناها ومبناها، ص228.
- 42 - عمر بن أبي ربيعة، ديوان عمر بن أبي ربيعة، تقديم فايز محمد، دار الكتاب العربي، بيروت، ط3، 1996، ص73.
- 43 - ينظر عبد الرحمن حسن جنكح الميداني، البلاغة العربية (أسسها، وعلموها، وفنونها)، ج1، ص247.
- 44 - ينظر تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص345.
- 45 - سيبويه، الكتاب، ج1، ص257.
- 46 - سيبويه، الكتاب، ج1، ص257.
- 47 - المصدر نفسه، ج1، ص275.
- 48 - المصدر نفسه، ج2، ص130.
- 49 - ابن جني، الخصائص، ج1، ص245.
- 50 - المصدر نفسه، ج1، ص246.
- 51 - ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تق محي الدين، المكتبة العصرية، بيروت، 1995، ج2، ص46.
- 52 - الطيب دبة، اللسانيات وقضايا اللغة العربية، منشورات مخبر اللسانيات التقابلية وخصائص اللغات كلية الآداب واللغات بجامعة الاغواط الجزائر، مطبعة رويغي، ط1، 2014، ص103.
- 53 - ينظر علي جابر المنصوري، الدلالة الزمنية في الجملة العربية، الدار العلمية الدولية ودار الثقافة للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2002، ص35.
- 54 - السيوطي، همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، ج1، ص37.
- 55 - ينظر مسعود صحراوي، التداولية عند علماء العرب (دراسة تداولية لظاهرة الافعال الكلامية في التراث اللساني العربي)، دار التنوير للنشر والتوزيع، حسين داي، الجزائر، ط1، 2008، ص206.
- 56 - ينظر البشير جلول، مجلة المخبر، جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر، العدد06، 2011، ص351.

57 - الطيب دبة، اللسانيات وقضايا اللغة العربية، ص103.

58 - ينظر محمد رجب محمد الوزير، مجلة علوم اللغة، دار غرب، القاهرة، مصر، 1998، مج1، العدد02، ص145.

59 - طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 1998، ص45.